إلى الخـــير ...

للأستاذ ثروت أباظه

... نعم يا سيدى ، لقد رأيتنى أهيم فى الحوالك من الظلمات ، شارداً أضرب فى الحياة وتضرب بى ولا نصير ... أقطع الطريق أو أقف دونه لا يشجعنى على السير صديق أو يحثنى دون الوقوف رفيق ، وأنا مع الحياة لا أبالى أيان يلق بى موجها ، فكل أفق لى قبلة ، فليس لى فى أى أفق من الآفاق أمل مرتقب ، وحولى الناس كلهم لاه عن غيره إلى نفسه ، فلهوت عنهم ؛ ولم يكن لى نفس لأثوب إليها أو أطمع بها ، فكنت أترقب إلى السماء مرات خمسا بين الصباحين فأسأله فى عليائه أن يفسح بينى وبين أحد عباده على الأرض طريقاً ... فإذا طال بى السؤال دون الإجابة ابتهلت إليه أن يضمنى إلى سمائه أرى الرحمة الكبرى من ورائها تأتلف التق فى سيبها والناصيا .

ولم يكن بى عصيان لأوامره ، غير أنى أحسست على الناس النقمة ، وكرهت أن أرى السعيد منهم ، فانصرفت إلى دار الكتب حيث يباح التثقيف بغير أجر ، فظلت أقرأ وأقرأ ، وكنت كلما ازددت قراءة قلت فى نفسى : لو لم تكن هذه الكتب من عمل الإنسان لكانت أعظم مما هى عليه ... وكنت أعجب كيف يستطيع الإنسان الكنود أن يخرج مثل هذا الصفاء ... كتاب لا يملك ، فإذا مللته أنت لم يغضب ، بل يقيم أيان تضعه منتظراً منك المودة ؛ فإذا عدت لاقاك مفتوح الصدر ، صريح العبارة ، لا يخفى عنك شيئاً ؛ وإذا قصر يوما عن إبلاغك مرادك اعتذر إليك وقدم زميلا له يشرح ما غمض فيه .. هكذا يا سيدى عرفت صديقاً على الأرض ، وهكذا كنت أفكر فى شأنه ، فما خاننى ولا خنته ، بل زادنى تجربة وعلما .. وهكذا يا سيدى خلت أن الله قد أجاب به الدعاء وحقق لى الأمل فرحت أكتب إلى الجرائد أستعين بما ترسله من مال زهيد على ما كل يأبى الوصول إلىّ ، أو مسكن ينفر — على رثاثته — أن يضمنى بين حجراته . أما الناس يا سيدى فقد يئست من وجودهم منذ أزمان بعيدة .

وتلك رسالة الشاعر العامل ، إذ يحمل بيده المشعل المضيء فينير السبيل .

وكنت أود أن أتكلم عن الإلياذة كوحدة مستقلة فأعرض لها ببعض التحليل والتشريح ، ولكن القدر قد كتب لها أن تظل فى مهملات وزارة المعارف بجفوة منسية فى عصر مجحف ظالم رسبت الدرر الغالية فى قاعه ، وطفت الجيف المنتنة فوق سطحه ، فطبعت دواوين المتشاعرين من المتافين والمستقين ، وأهملت ملاحم النوابغ الملهمين . ولولا ما قرأته فى المجلات الأدبية والعلمية كالرسالة والثقافة والأزهر من قصائد متناثرة تنتمى إلى إلياذة محرم لظننتها خرافة يختلق مريب !! .

وإذا تعدينا تاريخ محمد إلى غيره من المرسلين فإننا نجد محرماً قد اندفع أيضاً وراء عاطفته الدينية فنظم فى قصص الأنبياء معلقة طويلة ألقاها فى موسم الشعر وقد ابتدأها بقصة آدم وحواء ، وخروجهما من الجنة ، ثم دلف إلى الأنبياء الذين ذكرهم القرآن فروى قصصهم الماضية مبينا جهود كل نبي فى دعوته ، وما قابله به قومه من العناد والاستخفاف ، ثم ما كان فى النهاية من ظهور الحق وخذلان الباطل ، وإن كان هناك فرق شاسع بين حديث الشاعر عن الأنبياء فى ملحمته الجيدة ، وحديثه عن محمد فى إلياذته العامرة ، حيث كان فى الأول مؤرخا يسجل الحوادث كما حكاها القرآن ، وتناقلها الرواة والمفسرون دون أن تقوم شاعريته بتوليد بارع أو ابتكار رائع ؛ ولكنه فى الإلياذة قد جمع بين التاريخ والفن ، فهو مبدع فى الفكرة والعرض معا كما يرسم صورة للزمان والمكان . وقد يهتم بالجزئيات الصغيرة فيصوغها فى لباقة تحمد للناثر المترسل فما ظنك بالمقيد بقافية ووزن !! ذلك توفيق كبير .

رحم الله محرما فقد أسدى إلى العروبة والإسلام يداً بيضاء لم يسلفها شاعر عربى قبله ، ومع ذلك فقد عاش حياته الطويلة فى دمنهور كادحاً متعباً لا يجد الناشر الذى يظهر له ديوانه الرائع فى ثوب لائق بمركزه المرموق ، ثم وافاه الأجل المحتوم فسكت الأدباء عنه فى قسوة ، غافلين عن أدبه الحى وفنه الرفيع ، وكأنى به فى حنادس القبر يردد متأوها نافثا بيته الحزين .

خلقت وفى فى الأدب العلى وضعت وفى يدى الكنز الثمين

(جزيرة الروضة) محمد رجب البيومى

ولم يكن اليأس مريحاً – كما يقولون – فقد مضيت به رغم صداقة صاحبي، الكتاب .. كذلك ياسيدى كنت حين شاء لك ذوقك الأدبي الرفيع أن تختارني لأعمل لديك على سبيل الدوام فقصدت إليك يائساً من الصداقة والشهرة، آملا فى الكسب، ولاقيتني يا سيدى فأحببت فى خلقاً وسلوكاً، وأحببت فيك كل ما فيك، ولم أجرؤ أن أبين عن هذا الحب خشية أن يتمادى بى ثم تنقطع بيننا الأسباب... خشيت على نفسى ياسيدى، ولكن خلقا فيك كريما أبى إلا أن يشجعنى فأحببتك وأحببت الناس فيك ولك .. ووجدت نفسى قد خلقت خلقاً آخر، فلا حقد ولا يأس ولا قنوط؛ ومازلت بى ياسيدى تمد لى من عطفك فأمد لك من حبى حتى وجدتنى أقول لك من غير داع «إنه لو جاء يوم أعير قطعنى عنك فإنى والله لن تقوم لى قائمة بعده» ... ولست أنساك يومئذ يا سيدى وأنت تضحك لى فى حب كبير ... «إنها أوهام ... طالما يتخيل الإنسان أموراً ثم يجسمها فلا تلبث أن يذيبها مرور الأيام» وقلت لك يا سيدى : «إنه لن يكون هناك أيام لتذيبها فسوف أذوب أنا قبل أن تمر هاته الأيام» هكذا يا سيدى باح بى الحب فعشت أرصد حياتى لك ولخدمتك حتى نلت لديك ما نلت . وكنت أنت حياتى بعد أن تقطعت بى أسباب الحياة .

وهأنت ذا يا سيدى اليوم تقصينى عن موارد حبك فأخرج إلى الكتاب مرة أخرى وألاقيه فيلاقينى مفتوح الذراعين حانيا، وكنت أقسمت يا سيدى وأنا أعمل بجريدتك ألا أكتب فى غيرها أبداً؛ ومازلت يا سيدى باراً بهذا القسم؛ بيد أنى تذكرت اليوم فقط أمراً لم يخطر لى ببال، تذكرت ياسيدى أنك مرهف الحس، دقيق الشعور، وخشيت ياسيدى إذا أنا حطمت حياتى أن تشعر بما جنيته على، ولا أريدك يا سيدى أن ترجع إلى وأنا حطام لتبنيني على حياتك كرهاً مادمت أنت بعيداً عنها . فقلت فى نفسى: لأعمل حتى لا يشعر بما جناه، وحتى يطمئن إلى أنى مازلت أقاوم الحياة . وإنى يا سيدى حتى اليوم كما سألنى سائل عن سبب القطيعة خلقت فى نفسى ميولا لا أظنها تجرؤ أن تتعصب إلى وأنا من أحببته أنت حينا من الدهر، ولكنى كنت أجور على نفسى حتى لا يجور القوم عليك ... فأنا ما زلت أحبك شأنى دائما، أما ما قام بنفسك من شك فى وفى حبى لك فأنت وحدك الذى ستمحوه حين تستبين حقيقة نفسى مادمت لم تستبنها حتى اليوم، وما دمت يا سيدى تعتقد – رغم كل ما أبنت لك – أنى كنت أداهنك وأداجيك . ولعمرى أى فائدة تعود على من المداهنة والمداجاة وأنا لم أطلب منك يوما مطلبا لنفسى ؟.. أى فائدة وقد أغريت لتركك بالمال فكنت أسب كل من يجرؤ على هذا . أى فائدة !.. اللهم إلا إذا كنت تعتنى أمثل لمجرد التمثيل! وحينئذ يا سيدى أسمح لى أن أرى فى هذا التفكير انحطاطا عما عرفته فيك من ذكاء لماح ... ولكن دعنى يا سيدى أقل الحقيقة ... إنك عجبت أن يكون فى العالم إخلاص كإخلاصى، واستبعدت أن يحب شخص شخصا مثلما أحببتك، وخشيت أن أكون كاذبا فقلت فى ضميرك : لأريح نفسى من عناء البحث والاستقصاء والتحليل، ولأقطع بينى وبينه الصلات قبل أن يفجعنى بالخيانة . ولو أنك نظرت إلى ماضى وأنت تعرفه لعلمت أن مكانك من نفسى ليس بالغريب ... لقد كنت يا سيدى بمثابة الواحة التى يجد بها التائه ماء وظلا وعيشا، فهو قائم بها لا يريم ... كنت ياسيدى كذلك فى حياتى وما تزال يا سيدى كذلك ولن تزال .

لعلك تعجب لم أكتب إليك كل هذا الكلام ... كتبت لأبين لك عما ينتفض به حسى، ولأطمئنك على قابل من الأيام فلا يعلكن عليك العطف شعورك، ولتهدأ بالا ولتثق يا سيدى أنى لن أصادق بعدك أحداً حتى لا أفجع فيه مرة أخرى، ولكنى سأعيش، وسأعيش بما أتحته لى من شهرة، فأنالك أيان تاق بى الأيام رحلها، ولكنى أستحلفك ياسيدى ألا تعامل غيرى بمثل ما عاملتنى ... على أنه لن يتاح لك أن تفعل، فإن أحداً لن يحبك أو يخلص لك كما أحببتك وأخلصت لك – لأن أحداً لم يلق فى حياته إعجاباً كالاقيت . والسلام عليك ورحمة الله .

قرأ صاحبي الخطاب وأنا أتابعه مأخوذاً بأسلوبه المترسل عاجباً من إخلاصه المسكين؛ وما انتهى الصديق من القراءة حتى صوبت إليه أقول :

– فمن الكاتب ؟

– لقد عرفت شخصيته وما أظنك بحاجة إلى معرفة اسمه.

– ولم أقصيته عن موارد حبك بعد أن أمحتها له ؟!

– لقد أجاب هو عن هذا السؤال خير إجابة .